قرطاس

▪ أحمد عبد الحسين

قطرة حياء

هناك خطّ أحمر يحكم تصرفات الإنسان السويّ، خطّ مكوّن من الخجل أو الاستحياء أو من خشية تشوّه صورته في نظر الآخرين، وهو يشكّل حائط صدّ يعصم الإنسان من أن يسطو على ممتلكات سواه أو يهدد أرواحهم أو يقلق راحتهم أو يتصرّف كأنه الوحيد المستحقّ للحياة، والآخرون إلى الجحيم.

هذا الحاجز النفسيّ . الاجتماعي أقوى الحواجز التي تحكم شهوة الإنسان للتغالب وحيازة السلطات والممتلكات دون رادع، إنه . نظراً لمعطاه الاجتماعيّ المباشر ووجود رقباء وشهود عليه . أقوى بكثير من الروادع الدينية، وله تأثير أبلغ من أوامر ونواهي الفقهاء والمصلحين.

ولذا شائع جداً أن تجد أناساً غير ديّنيين وليسوا على اطلاع بموارد الحلال والحرام لكنهم مع ذلك يحجزهم هذا الورع الذاتيّ عن سلب الآخرين حقوقهم ويمنعهم من التصرف باعتبارهم مركز العالم وعليهم وحدهم تدور رحى الحياة ولهم وحدهم لا لغيرهم خلق الله العالم وما فيه.

وفي المقابل تجد أشخاصاً ترك السجودُ علامات سوداً في جباههم، ولا تهدأ ألسنتهم بالذكر والدعاء والبسملة والحوقلة، وهم أكثر الناس استشهاداً بآية أو حديث شريف، وأعرف الناس بموارد الفقه، لكنهم يشتملون على نفوس تريد وتتمنى أن تحرق كل ما حولها ومن حولها إذا وفّر لها ذلك مغنماً بسيطاً أو عرضاً من أعراض عيش رغيد.

كان أهلنا البسطاء يقولون عمن لا يراعي مشاعر الناس في تصرفاته ولا يقيم لهم وزناً بأن "قطرة الحياء سقطتْ من جبينه"، وهو تعبير مجازيّ يقال لمن تملكتْه روح كلبيّة وأخذ يسعى للحصول على مغانم حتى لو كان في ذلك أذى لأقرب الناس إليه.

تذكرت هذه الجباه ذات الأخاديد السود والتي سقطتْ منها قطرات الحياء منذ زمن بعيد وأنا أقرأ أن برلمانيين ومسؤولين كباراً يريدون أن يتقاسموا في ما بينهم ٤٠٠٠ دونم من أراضي بغداد الحيوية والمهمة لبناء بيوتٍ لهم، وسيشرعون باستصدار قرار بذلك.

أمس قال محمد الربيعي رئيس لجنة التخطيط في مجلس بغداد إن رغبة هؤلاء المسؤولين في سرقة أراضي بغداد سرقة رسمية تعدّ "امتداداً لأفعال النظام السابق"، وقبلها حذّرت المرجعية على لسان السيد أحمد الصافي وكيل السيد السيستاني من مغبة المضيّ في هذا المشروع الذي يفتقر إلى الحياء. لكنْ كيف يمكن أن نلقّن الخجل والاستحياء لأشخاص فقدوا تلك الملكة الربانية منذ زمن بعيد؟ كيف يمكن أن نعيده إنساناً سوياً ذلك الذي جعله التكالب على المال وحشاً كاسراً ببدلة وسيماء صالحين وسواد نفاق على الجبين؟!

أتذكر الجبين الوضّاء لرجل اسمه عبد الكريم، ويسميه أهلنا "كرومي"، حكم العراق أربع سنوات ونصف السنة فقط، قام فيها بتوزيع أراضٍ على كلّ فقراء العراق ومات هو من دون أن يكون له بيت.

أتذكر جبينه المشرق الذي لم تكن فيه علامة سجود، لكنْ ضوء رضى وكرامة وبهاء وقطرة حياء نفتّش عنها في جباه الساسة بعده ولا نعثر عليها.

ملفّ "ثقافة اللاعنف في العراق" ١

العنف بوصفه سلوكاً دفاعيّاً

طفولة مغرقة بالعنف

نادية الآلوسيّ

بات في حكم العادة أن يخرج أكثر الرجال مسالمة إلى السوق لشراء لعبة لولده ، ويعود وقد اختار تلقائياً مسدساً أو رشاشة أو ربما دبابة أو طائرة حربية. وليس ذلك لعدم وجود بديل لهذا النوع من لعب الأطفال فالبديل متوفر ، لكن الرجل سيرد على من ينتقده مكتفياً بهز كتفيه مدافعاً بابتسامة اللاجدوى الخائبة.

والأب الذي يفهم أصول التربية الحديثة ويطبقها لن يقوم بإكراه ولده بأية طريقة على التخلي عن اختياره الذي يصر عليه بعد أن فشل في إقناعه ، لذا فهو ينساق إلى تلبية رغبة الولد .

ويريح هذا الأب ضميره من شعور الذنب بحجة أن هذه الألعاب قد ملأت الأسواق واكتظت بها الحوانيت حتى اندلقت منها إلى الأرصفة والشوارع . وهو إنما فعل مثلما يفعل آباء مثله ، بل أن منهم من يتعمد شراء لعب الأطفال العنفية لأولادهم الذكور لأنها باعتقادهم تنمي فيهم منذ الصغر سلوك العنف كدليل للقوة أو الجرأة التي تنفعهم عندما يصيرون رجالا.

لو أعطينا حق الحكم على سلوك هذا الرجل فإننا لن نلتمس له عذرا أبدا لكننا في ذات الوقت لا نستغرب سلوكه المتناقض . ونحن على يقين بأنه ليس مسالما تماما طوال الوقت ولا يتمتع ضميره بالهدوء والطمأنينة دائما ، فهناك أوقات يكون سلوكه فيها مشوبا بالعنف في أية صورة من صوره ، لأنه واحد منا ويعيش في نفس مجتمعنا .

لنتأمل أنفسنا حين نتحاور أحيانا مع آخرين بهدوء ورصانة حول قضية ما ، كم يمضي من الوقت قبل أن يخرج حوارنا عن مساره الرصين ويتحول إلى جدل حاد وعنيف وتعلو أصواتنا على بعضها وقد يتملكنا الغضب عندما لا يقر الآخرون بأن آراءنا هي الأصوب ؟ ويتضح ذلك بشكل كبير حين يتحاور الرجال مع الرجال والنساء مع النساء .

لقد أصبح سلوكنا الحياتي اليومي مع الآخرين مضطربا لا يتسم في أحيان كثيرة بالتوازن والاستقرار . بل أصبح العنف فيه سمة ظاهرة تتخذ أشكالا متعددة تبعا لما نكون عليه من مستوى ثقافي واجتماعي ، وصرنا نتعامل بحدة وتوتر كأننا نقف على نهايات أعصابنا . فقد نجد أن شخصا هذب نفسه وجعل ضميره رقيبا على كل أفعاله وبلغ أرقى مراتب الأخلاق ، ينفعل وينفجر في لحظة ليخرج منه إنسان آخر يختلف كلية عن الأول ويسلك سلوكا عنيفا ولابد من سبب قوي لذلك .

إن أية خبرة انفعالية مؤلمة أو مهينة لضمير الفرد يقابلها الضمير بردة فعل عفوية ، ويكون العنف هو ردة فعل الضمير الذي تعرض للأذى .

والعنف سلوك بدائي لاعقلاني يتصف بالقوة والقهر والعدوان ويتمثل في الرغبة في إيذاء الغير أو الذات ، تحركه دوافع متعددة . وللعنف مظاهر مختلفة كالصراخ والضرب وتحطيم الأشياء أو استخدام قوة السلاح وكذلك من مظاهره السب والشتم اللاذع والسخرية . ويمكن أن يكون العنف فرديا أو صادرا عن جماعة . وبالنسبة للفرد السوي ، فإن العنف هو لغة التخاطب الأخيرة الممكنة له مع الآخرين في مجتمعه بعد أن يعجز عن إيصال صوته بوسائل الحوار العادي ويتأكد تماما بأنه فشل في إقناع الآخرين بحقه وحاجاته أو برأيه .

أما النظرية الأخرى فهي السلوكية . وبحسب هذه النظرية فإن العنف سلوك مكتسب يتعلمه الفرد من خلال مجتمعه وتجاربه الحياتية خاصة في مرحلة الطفولة . فإذا تعرض الطفل لخبرة العنف في المراحل الأولى من حياته فإنه سوف يمارسه لاحقا مع الآخرين أو الكائنات الأخرى في الطبيعة أو حتى مع الأشياء الجامدة الأساسية الأولى ، فإنه لن يكون بوسعه توفير حاجاته اللاحقة .

لقد تعرض الفرد العراقي لعقود طويلة إلى إخفاقات متواصلة وكانت كل ظروف واقعه تضغط باتجاه فشله في تلبية حاجاته الأساسية حتى في حدودها الدنيا . وكان السبب الرئيس في تلك الإخفاقات هو السلطة القمعية الحاكمة التي اعتمدت العنف سياسة مباشرة لها وجعلته منهاجا للدولة . وقد مارست تلك السلطة عنفا مزدوجا ضد الدول الأخرى وضد أفراد شعبها كانت نتائجه ، الموت ، العوق ، الفقر ، التشتت الأسري ، تدني المستوى التعليمي ، وفقدان القدرة على ممارسة الحياة بشكل طبيعي وكل ذلك أدى إلى جروح نفسية مازالت آثارها قائمة ويتطلب الشفاء منها وقتا طويلا .

ولما كان من المستحيل أن يعبر الفرد عن رفضه الصريح لسياسات تلك السلطة أو يحتج عليها فان كل مشاعر الغضب والإحباط والقهر لديه توجهت نحو الآخرين ، الأضعف منه على وجه التحديد ، أو نحو ذاته . ومن الغرابة أن التعبير عن الغضب والقهر المكبوتين تحول إلى عنف كلامي تمثل في الجرأة على سب الذات الإلهية الجليلة ، وهذه ظاهرة تلاشت إلى حد كبير الآن . اليوم ، لم يعد من سبب يدعو إلى كبت مشاعر الغضب والقهر أو الخوف من التعبير عن الرفض والاحتجاج لأن هذه المشاعر وجدت لها مسارب كثيرة ومتنوعة . غير أن رواسب العقود الماضية مازالت مؤثرة ومازال الفرد بعيدا عن مستوى تحقيق حاجاته الأساسية . وأهم من كل ذلك مظاهر العنف الصريح التي أصبحت مشاهد حياتية معتادة ، والموت الذي هو أكبر خطر يخشاه الإنسان صار حدثا يوميا قريبا ، يتجول في الشوارع ويجلس على الأرصفة . ولم يعد الأب الذي يشتري لطفله لعبة على شكل مسدس أو رشاشة ، بحاجة لأن يعلمه كيفية اللعب بها فالطفل يعرف جيدا وقد أصبحت لديه الخبرة لماذا تستخدم في حقيقتها .

إن الشخصية وحدة متكاملة مركبة من كل ما يكتسبه الفرد من عادات وتقاليد وعقائد دينية وخبرات حياتية وسلوك اجتماعي . والضمير شيء منفصل عن الذات الإنسانية أو الأنا وهو الرقيب على أعمال الفرد والمحاسب عليها . وهناك من يعتبر الضمير صوتا نابعا من خارج النفس البشرية ، أو هو صوت إلهي بمعنى صادر عن الدين . وهناك من يقول بأنه نابع من داخل النفس أو أنه تكون اجتماعيا . وتمضي أفعال الفرد وفقا لتوجيه من الدين أو العرف أو القانون أو الفطرة السليمة أو العقل . وعندما يتعرض الإنسان لأي نوع من الأذى فإن الصراع لديه يكون حول المرجع السلطوي الذي يقرر معاقبة من سبّب الأذى ، هل العقل والضمير أم العرف أم الدين والقانون ؟

ويمكننا والحديث عن النخب المجتمعية ، اعتبار أعضاء مجلس النواب كذلك بعد أن تم اختيارهم من قبل أفراد المجتمع لتشريع القوانين المنظمة للحياة وضمان تنفيذها . وعرفنا بأن هناك مسابقة أو مفاضلة بين تصميمات مختلفة جديدة للعلم العراقي . شيء مهم لو كانت الغاية نابعة من معرفة ما يحمله هذا العلم من دلالات عنفية لألوانه . بيض صنائعنا سود وقائعنا، خضر مرابعنا حمر مواضينا. أليس ذلك ماتعلمناه في المدارس؟ . أو علمونا بأنه يرمز بألوانه إلى عهود الاستعمار السوداء وبياض التحرر وحمرة الدماء التي سالت في سبيل الحرية ، ثم كان وضع النجمات الثلاث وبعد ذلك خطت عبارة الله أكبر في ظروف ولأسباب لا يجهلها كثير منا . وعلمنا بأنهم اتفقوا على رفع النجمات الثلاث لما كانت تحمله من معان طبقت بطريقة شوفينية مقيتة . ولأنهم ، ونحمد الله كثيرا ، يخافون الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، قرروا الإبقاء على عبارة الله أكبر مع تغيير الخط الذي كتبت به . لكن ماذا عن ألوان العلم .. وماذا عن لون الدم الأحمر .. هل سيبقى رمزنا المرفوع فوق رؤوسنا ؟ .

أملنا أن يكون المشرعون أكثر اهتماما ووعيا بما تمثله ألوان العلم ، فلا صنائع بيض لنا ولا مرابع خضر وكل وقائعنا صفر ، ومواضينا ثلم !! كما أننا لا نحب لون الدم ونرجو أن يفهموا ذلك .

وكان أكثر فائدة للمجتمع لو أنهم سنوا تشريعا جريئا يحرم استيراد أي شكل من أشكال لعب الأطفال التي ترمز للعنف بما في ذلك المفرقعات التي لها صوت يشبه صوت الطلقات الحقيقية والتي ننام ونصحو عليها وأصبحت لعبة الأعياد المفضلة لدى أطفالنا.

اليوم ، لم يعد من سبب يدعو إلى كبت مشاعر الغضب والقهر أو الخوف من التعبير عن الرفض والاحتجاج لأن هذه المشاعر وجدت لها مسارب كثيرة ومتنوعة . غير أن رواسب العقود الماضية مازالت مؤثرة ومازال الفرد بعيداً عن مستوى تحقيق حاجاته الأساسية . وأهم من كل ذلك مظاهر العنف الصريح التي أصبحت مشاهد حياتية معتادة ، والموت الذي هو أكبر خطر يخشاه الإنسان صار حدثاً يومياً قريباً

× تفتح صفحة رأي ملفّ "ثقافة العنف في العراق" ابتداء من هذا العدد، وستنشر تباعاً ما وردنا وسيردنا من مقالات بهذا الخصوص، وستكون هذه المقالات مادة لطاولة مستديرة يتم الإعلان لاحقاً.

نعم لثقافة العمل للجميع ولا لثقافة الاتّكال

حميد الكفائي

ما الفرق بين عائلتين إحداهما يعيلها شخص واحد والأخرى يعيلها شخصان؟ الجواب بسيط وهو أن دخل العائلة الثانية يعادل ضعف العائلة الأولى مما يعني أن قدراتها على الإنفاق على أبنائها وتعليمهم بشكل أفضل والعناية بصحتهم ورفع ثقافتهم ورفاهيتهم هي الأخرى تعادل ضعف قدرات العائلة الأولى. هذا على المستوى الفردي أما على مستوى البلد بشكل عام فإن مستوى الرقي والخدمات والإنتاج سيتضاعف أيضا وكذلك سرعة النمو والتطور لو تضاعف عدد العاملين والمشاركين في البناء.

وإذا ما أضفنا إلى ذلك تزايد القدرات والكفاءات بسبب تراكم الخبرات المتأتية من العمل، فإن نسبة التطور والنمو وسرعتهما سوف تتزايدان بمرور الزمن وتساهمان في تحقيق المزيد من الرقي للبلد ورفع قدراته على تحقيق الرفاهية لشعبه والتنافس عالميا في الإنتاج والخدمات.

العملية الحسابية المذكورة أعلاه بسيطة لكن الذي يقف وراءها مبدأ أكبر وأعقد وأكثر أهمية وهو أن هناك حاجة لمشاركة جميع أفراد المجتمع، نساء ورجالا، كبارا وصغارا، في جهود البناء والإعمار لأن تعطيل الطاقات البشرية تحت أي حجة هو السبب الذي يعيق تقدم بلداننا في وقت يتقدم به الآخرون في أنحاء أخرى من العالم. في كثير من بلداننا العربية والإسلامية تبقى النساء، وهن بالتأكيد نصف المجتمع، وفي بلدان كثيرة، منها العراق، يشكلن أكثر من النصف، معطلات عن العمل والمساهمة في البناء بسبب العادات والتقاليد البالية الضارة والتفسير الشخصي أو المجتمعي الخاطئ للدين. لكن جوهر الدين لا يمنع عمل النساء وتفاعلهن في المجتمع ومساهمتهن في البناء بل يشجع عليه وإلا لما حث النبي على تعليم النساء (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة). إن أردنا لمجتمعاتنا أن تتطور فيجب إشراك كل أفراد المجتمع في العمل والبناء، فليس من العدل للطرفين، العاطلين والعاملين على حد سواء، أن يعتاش الأكثرية على جهود الأقلية في وقت يحتاج المرء إلى كل ما متوفر له من وقت لقضائه في العمل والتعلم والتطور.

عشت لفترة في أحد البلدان الإسلامية الفقيرة جدا ورأيت أن المرأة هناك لا تعمل إلا نادرا وإن عملت ففي حقول محددة كالتعليم النسائي مثلا أو الصحة النسائية، بينما يستقدم ذلك البلد مئات الآلاف من النساء من بلدان أخرى أكثر فقرا كي يعملن في الفنادق والمطاعم ومراكز التسوق وباقي مرافق الحياة. أمر غريب حقا. مجتمع فقير لكنه يحرم المرأة الوطنية من العمل ويقيد حريتها بينما يمنح كامل الحرية وفرص العمل القليلة المتاحة في البلد للنساء الأجنبيات. نساء البلد اللائي يعشن في فقر مدقع ومحتاجات إلى المال والمنتميات إلى عائلات فقيرة جدا يجلسن في بيوتهن بسبب التقاليد الضارة المتوارثة عن أزمان خلت بينما تؤدي الأعمال الضرورية أخريات من بلدان أخرى.

كثير من المسلمين في البلدان الغربية يعيشون فقراء وبمستوى معيشي أقل من الآخرين والسبب هو أن نساءهم لا تعمل، إما لأن الزوج لا يريد لزوجته أن تحتك بالمجتمع، بسبب هذا التقليد المجتمعي السيئ، أو لأن المرأة لا تحمل أي مهارة بسبب حرمانها من فرص التعليم والتدريب، مما يفرض عليها العمل في المنزل فقط.

الفرد في المجتمعات المتطورة يلقى كل دعم من أجل أن يعمل ويتدرب على العمل منذ الصغر. أتذكر أن الشخص الذي كان يوصل الجريدة إلى منزلي صباحا كان طفلا ربما تجاوز العاشرة من عمره قليلا وكان أبوه يوصله بسيارة فاخرة لا يقدر على شرائها إلا الأغنياء مما يعني أن العائلة لم تكن بحاجة إلى التفاليس التي يأتي بها هذا الطفل من عمله في نقل الجرائد إلى المنازل لكن الهدف من كل ذلك هو أن يشعر الطفل بأنه هو شخصيا يكسب أموالا بجهوده. هذه الثقافة، ثقافة العمل والكسب المشروع منذ الصغر للرجال والنساء على حد سواء، ثقافة المساهمة والمشاركة، هي التي يجب أن ننشرها ونروج لها في مجتمعاتنا وليس ثقافة الاتكال والتعالي عن العمل السائدة حاليا. هذه الثقافة هي التي ستساهم حقا في تطوير بلداننا وترفع من مستوياتنا المعيشية والثقافية والصحية وتقلص العنف وتزيد الترابط بين أفراد المجتمع وتقلص الحاجة إلى الآخر والاتكال عليه.

بلداننا بحاجة إلى البناء والتطور في أسرع وقت ممكن ومازلنا نعطل طاقات النساء ونمنعهن من المشاركة في البناء، ونثقف أبناءنا على الاتكال على آبائهم في الإنفاق وعدم الانخراط في بعض الأعمال، فستظل بلداننا ومجتمعاتنا وأجيالنا متخلفة ومتضررة. ليس هناك شيء يحدث دون تضحية وإن أردنا أن نتقدم فعلينا أن نضحي ببعض التقاليد الضارة التي برهنت الأزمان المتعاقبة والتجارب العملية على أنها سبب تأخّر مجتمعاتنا.

التقاليد المحافظة لاتتعارض مع عمل المرأة